الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة ـ مكة المكرمة

الإعجاز العلمي تأصيلاً ومنهجاً

إعداد الأمانة العامة لهيئة الأعجاز

إن معجزة القرآن العلمية تظهر لأهل العلم في كل مجال من مجالاته، فهي ظاهرة في نظمه، وفى إخبـاره عن الأولين، وفى إنبائه بحوادث المستقبل، وحكم التشريع وغيرها، ولقد شاع مصطلح الإعجاز العلمـي فـي عصرنا،للدلالة على أوجه إعجاز القرآن والسنة التي كشفت عنها العلوم الكونية ونظراً لجدة البحث في حقـل الإعجاز العلمي في القرآن - بالنسبة لغيره من حقول الدراسات القرآنية - فسوف نقدم في هذا البحث تأصيلاً لهذا العلم بغية إعانة المشتغلين في هذا الحقل على ارتياد آفاقه. ونبدأ بتعريف الإعجاز. الإعجاز لغة: مشتـق من العجز. والعجز: الضعف أو عدم القدرة، وهو مصدر أعجز بمعنى الفوت والسبق (انظر لسان العرب لا بن منظور مادة عجز ٣٧٠/٥ والمفردات للراغب الأصفهانى). والمعجزة في اصطلاح العلماء: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة(انظر معنى ذلك في تفسير القرطـبى ٩٦/١وفتـح البـارى ٥٨١/٦). وإعجاز القرآن: يقصد به إعجاز القرآن الناس أن يأتوا بمثله. أي نسبة العجز إلى الناس بسبب عدم قدرتهـم على الإتيان بمثله. ووصف الإعجاز هنا بأنه علمي نسبة إلى العلم. والعلم: هو إدراك الأشياء على حقائقها أو هو صفة ينكشف بها المطلوب انكشافاً تاماً (راجع الراغب الأصفهانى: المفردات ص ٣٤٣ والشوكانى:إرشـاد الفحول ص٤) والمقصود بالعلم في هذا المقام: العلم التجريبي.

تعريف الإعجاز العلمي:

وعليه فإن الإعجاز العلمي هو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عـدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول مما يظهر صدقه فيما أخبر به عن ربه سبحانه وتعالى.

مناسبة المعجزة القرآنية - بما تتضمنه من حقائق علمية - لعالمية الرسالة الإسلامية:

لما كان الرسل قبل محمد يبعثون إلى أقوامهم خاصة، ولأزمنة محدودة فقد أيدهم ا ببينات حسية مثل: عصا موسى عليه السلام وإحياء الموتى بإذن ا على يد عيسى عليه السلام وتستمر هذه البيانات الحسية محتفظة بقوة إقناعها في الزمن المحدد لرسالة كل رسول حتى إذا تطاول الزمن وتقادم وضعف أثر الرسالة الصافي، اختفـت قوة الإقناع الحسية، وبعث ا رسولاً آخر بالدين الذي يرضاه، وبمعجزة جديدة وبينة مشاهدة. ولما ختم ا النبوة بمحمد ضمن له حفظ دينه وأيده ببينة كبرى تبقى بين أيدى الناس إلى قيام الساعة قال تعالى: {قل أي شيء أكبر شهادة قل ا شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ} (الأنعام:١٩) ومن ذلك مـا يتـصل بالمعجزة العلمية. وقال تعالى { لكن ا يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه} (النساء:١٦٦) وفى هـذه الآيـة التـي نزلت رداً على تكذيب الكافرين بنبوة محمد(انظر سبب النزول ابن الجوزى ٢٥٧/٢، الطبرى ٢٢/٥، ابن كثيـر ١/٥٩٠، الجلالين ص ١٣٧) بيان لطبيعة المعجزة العلمية التي تبقى بين يدى الناس، وتتجدد مع كل فتح بشرى في آفاق العلوم والمعارف ذات الصلة بمعاني الوحي الإلهي.

قال الخازن عند تفسير هذه الآية:"لكن ا يشهد لك يا محمد بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذي أنزلـه عليك "(الخازن في مجموعة من التفاسير ٢١٠/٢) وقال ابن كثير " انزله بعلمه أي فيه علمه ا لذي أراد أن يطلـع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان وما يحبه ا ويرضاه وما يكرهه ويأباه وما فيه من العلم بالغيوب مـن الماضي والمستقبل " (ابن كثير ١/٥٦٠) وقال أبو العباس ابن تيمية: فإن شهادته بما أنزل منه وأنه أنزله بعلمه

فما فيه من الخبر وخبر عن علم ا يسن خبراً عمن دونه (الفتاوى ١٩٦/١٤) وإلى هذا المعنى ذهب كثير مـن المفسرين (ابن الجوزى ٢٥٧/٢، الزمخشرى ٥٨٤/١، ابو حيان ٣٩٩/٣، الالوسـى ١٩،٢٠/٦، الشوكـانى ١/ ٥٣٩، البيضاوى والنسفى والخازن في كتاب مجموعة من التفاسير ٢١٠/، الجلالين ص١٣٧). وهكـذا تسـطع بينة الوحي المنزل على محمد بما نزل فيه من علم إلهي يدركه الناس في كل زمان و مكان ويتجدد علـى مـر العصور ولذلك قال: " ما من الأنبياء نبى إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتـه وحياً أوحاه ا إلي،فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة "(البخارى: فتح البارى ٣/٩، مسلم: كتاب الإيمـان) قال ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: " ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه للعادة في أسلوبه وفـى بلاغته، وإخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شئ مما أخبر به أنه سيكون يـدل علـى صحة دعواه فعم نفعه من حضر ومن غاب ومن وجد، ومن سيوجد "(فتح البارى لابن حجر: ٧/٩).

جريان العلم وراء ما أخبر عنه القرآن:

وبينة القرآن العلمية يدركها العربي والأعجمي، وتبقى ظاهرة متجددة إلى قيام الساعة، ففـى القـرآن أنبـاء نعرف المقصود منها لأنها بلسان عربى مبين، لكن حقائقها وكيفياتها لا تتجلى إلا بعد حين. قال تعالى: { أن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين } (ص ٨٧- ٨٨) قال الفراء في تفسير الحين أنه:" بعد الموت وقبله.. أي في المستأنف " (القرطبى ٢٣١/١٥) وذهب السدى الكبير إلى هذا المعنى (أبو حيان ٤١٢/٧) وقال ابن جريـر الطبرى: أن ا اعلم المشركين بهذا القرآن أنهم يعلمون نبأه بعد حين من غير حد منه لذلك الحين بحد، ولا حـد عند العرب للحين (الطبرى ١٢١/٢٣).

استقرار الحقيقة المخبر عنها:

وشاء ا أن يجعل لكل نبإ زمناً خاصاً يتحقق فيه فإذا تجلى الحدث ماثلاً للعيان أشرقت المعاني التي كانـت تدل عليها الحروف والألفاظ في القرآن وتتجدد المعجزة العلمية في قوله تعالى: { لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون ((الانعام:٦٧) ويبقى النبأ الإلهي محيطاً بكل الصور التي يتجدد ظهورها عبر القـرون. وقـال ابـن جريـر الطبرى:" أي لكل خبر مستقر، يعنى قرار يستقر عنده ونهاية ينتهي إليها ليتبين حقه وصدقه من كذبه وباطلـه " وسوف تعلمون يقول: وسوف تعلمون أيها المكذبون بصحة ما أخبر به " (الطبرى ١٤٧/٧) وقال ابن كثير: أي لكل خبر وقوع، ولو بعد حين، كما قال تعالى: " ولتعلمن نبأه بعد حين" وقال { لكل أجل كـتاب } (الرعـد ٣٨) (ابن كثير ١٤٤/٢) وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين. (القرطـبى ١١/٧، الشوكـانى: ١٢٨/٢، الـرازى: ٧/ ٢٥،٢٦ القاسمى: ٥٧٥/٦ أبو السعود ١٤٧/٣، البقاعى: ١٤٥/٧، ١٤٦).

أنباء الأرض والسماء في القرآن والسنة تتجلى في عصر الاكتشافات:

أن خبر القرآن والسنة وما فيهما من أوصاف لما في الأرض والسماء، هو نبأ إلهي عما في الأرض والسماء ممن هو أعلم بما خلق فيهما من أسرار قال تعالى: { قل أتنبئون ا بما لا يعلم في السموات ولا فـي الأرض } (يونس ١٨) فالخبر بما في الأرض والسماء نبأ عما في الأرض والسماء. لقد نزل القرآن فـي عصـر انتشـار الجهل وشيوع الخرافة، والكهانة، والسحر والتنجيم في العالم كله وكان للعرب النصيب الأوفى من هذه الجاهليـة والأمية كما بين القرآن ذلك بقوله: { هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهـم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين } (الجمعة: ٢).

في ذلك العصر وعلى تلك الأمة نزل الوحي وفيه علم ا ، يصف أسرار الخلق في شتى الافاق ويجلي دقائق الخلق في النفس البشريه يقرر البداية في الماضى ويصف أسرار الحاضر ويكشف غيب المستقبل الذي سـتكون عليه سائر المخلوقات. وعندما دخل الإنسان في عصر الاكتشافات العلمية وامتلك أدق أجهـزة البحـث العلمـي وتمكن من حشد جيوش من الباحثين في شتى المجالات يبحثون عن الأسرار المحجوبة في آفاق الأرض والسماء

وفى مجالات النفس البشرية يجمعون المقدمات ويرصدون النتائج في رحلة طويلة عبر القـرون ولمـا أخـذت الصورة في الاكتمال والحقيقة في التجلى وقعت المفاجأة الكبرى بتجلى أنوار الوحي الإلهي، الذي نـزل علـى محمد قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام بذكر تلك الحقيقة في آية من القرآن أو بعض آية أو في حديث لرسول ا صلى ا عليه وسلم أو بعض حديث بدقة علمية معجزة وعبارات مشرقة وبهذا أنبأنا القرآن. قال تعالى: (قـل أرأيتم أن كان من عند ا ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد سنريهم آياتنا في الأفاق و فى أنفسهـم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيئ شهيد) (فصلت:٥٢،٥٣) ولنتدبر معاني هذا النـص القرآني.

معنى آيات ا في الأفاق وفى الأنفس الأفق:

ما ظهر من نواحي الفلك وأطراف الأرض وآفاق السماء: نواحيها (مقاييس اللغة: لابن فارس ١١٤/١، ١١٥ ، لسان العرب: ٥،٦/١٥، الصحاح للجوهرى: ١٤٤٦/٤، تاج العروس: ٢٧٩/١، المفردات للأصـفهانى: ١٩) (وآيات ا في آفاق الأرض والسماء تحمل معاني ثلاثة: الأول: المخلوقات التي خلقها ا في شتى آفاق الأرض والسماء مثل قوله تعالى: (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة)(الشـورى: ٢٩) الثـاني: آيات القرآن التي تخبر وتصف أنواع المخلوقات، وهي آيات كثيرة. الثالث: البينات والمعجزات التي يظهرها ا تصديقاً لرسوله في شتى آفاق الأرض والسماء برؤية مصداقها من حقائق الخلق حينا بعد حين.

قال الشوكانى عند تفسير الآية: سنريهم صدق دلالات صدق القرآن، وعلامة كونه من عند ا في الآفاق - أي في النواحي - وفى أنفسهم.. (فتح القدير: ٥٢٣/٤). وقال ابن كثير: أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا علـى كون القرآن حقاً منزلاً من عند ا على رسول ا بدلائل خارجية في الآفاق. (تفسير ابن كثير ١٠٦/٤) وقـال الزمخشرى: ومعناه أن هذا الموعود من إظهار آيات ا في الآفاق وفى أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب، الذي هو على كل شئ شهيد أي مطلع ومهيمن يستوي عنده غيبـه وشـهادته فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه حق وأنه من عنده (الكشاف ٤٥٨/٣). وبهذا قال كثير من المفسـرين عنـد تفسير قوله تعالى:(حتى يتبين لهم أنه الحق)(فصلت:٥٣) وقال أبو العباس ابن تيمية: وأما الطريق العيانى فهو أن يرى العباد من الآيات الآفاقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن ا حق كما قال تعـالى: (سنريهم آيتنا في الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)(الفتاوى: ١٨٩/١٤). " وقال عطاء وابـن زيـد أيضاً: في (الآفاق) يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمـر والنجـوم والليـل والنهـار، والريـاح والأمطار، والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها "(القرطبى: ٣٧٤،٣٧٥/١٥) وروى هذا عنهما عدد من أئمة التفسير(الطبرى: ٢٥/٢٤، ابو حيان ٥٠٥/٧، الخازن في مجموعة من التفاسير: ٥/٣٩٥، الشوكانى: ٥٢٣/٤). فهذه آيات ا في كتابه تتحدث عن آياته في مخلوقاته وتتجلى بمعجزة علمية بينة تسطع في عصر الكشوف العلمية في آفاق الكون.

اللقاء حتمي والمعجزة واقعة:

إننا على وعد من ا عز وجل بأن يرينا آياته فيتحقق لنا- بهذه الرؤية - العلم الدقيق بمعاني هذه الآيات كما قال تعالى:(وقل الحمد سيريكم آياته فتعرفونها) (النمل:٩٣) ومخلوقاته من آياته ومنها ما جاء في القرآن وصفاً ونبأ عن آياته في السموات والأرض. وروى الطبرى عن مجاهد:(سيريكم آياته فتعرفونها) قـال: فـي أنفسكـم والسماء والأرض والرزق (الطبرى: ١٨/٢٠). وقال أبو حيان في البحر المحيط: سيريكم آياته: تهديد لأعدائـه بما يريهم ا من آياته تضطرهم إلي معرفتها والإقرار أنها آيات ا وقيل: آيات في أنفسكم وسائر ما خلق مثـل قوله:(سنريهم آياتنا في الافاق وفى أنفسهم) وقيل: معجزات الرسول وأضافها إليه لانه هو مجريها علـى يـدى الرسول ومظهرها من جهته(أبو حيان: ١٠٣/٧) وبمثل ما قال أبو حيان قال البقاعى في نظم الدرر(البقاعى: ١٤ /٢٢٩،٢٣٠) ومما سبق يتبين لنا أن البشرية على موعد من ا متجدد ومستمر بكشف آياته في الكـون، وفـى كتابه أمام الأبصار، لتقوم الحجة وتظهر المعجزة.

أن الوحي في القرآن والسنة؛ يفيض بالخبر عن أوصاف المخلوقات، وهذه الأبحاث العلمية التجريبية؛ تتجه بدراستها وبحثها إلى نفس الميدان ؛ الذي وصفه القرآن وتحدث عنه الرسول صلى ا عليه و سلم. فاللقاء حتمى والمعجزة – لا شك – واقعة. لقد جاءت العلوم البشرية التجريبية شاهدة بصدق ما أخبر به القرآن من تحريـف سائر الأديان كما بين ذلك موريس بوكاى في كتابه " التوراة و الإنجيل و القرآن في ضوء المعارف الحديثـة "، والتي جاءت شاهدة ومجلية لدقائق المعاني؛ في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية - ذات التعلق بالأمور الكونية - وهذه مناكب دعاة الإسلام؛ على اختلاف تخصصاتهم العلمية، تتزاحم لبيان هذه المعجزات العلمية، وبدأ عـدد من الدعاة، من المسلمين، يتجهون إلى بيان هذه المعجزات العلمية كما بدأ عدد من كبار علماء الكون من غيـر المسلمين، يتجهون إلى نفس الميدان مثلما فعل سبعة من كبار علماء الأجنة والتشريح وأمراض النساء من غيـر المسلمين في لجنة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في المؤتمر الطبى السعودي الذي عقد في الريـاض عـام ١٤٠٤ م فمنهم من أسلم مثل البرفيسور تاجاتات تاجاسن الذي أعلن إسلامه في أحد مؤتمرات الإعجاز العلمـي، ومنهم من شهد بحقيقة المعجزة العلمية فحان حين تجلى معاني كثير من آيات القرآن الكونية، وعدد- في نفـس المجال- من الأحاديث النبوية و(لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) (الانعام: ٦٧) وإذا كان النقص يعترى- بعض الدراسات في مجال الإعجاز العلمي في القرآن والسنة فلا يصح أن يكون ذلك حكماً علـى جميعهـا وإن هـذا ليوجب على القادرين من علماء الإسلام أن يسارعوا لخدمة القرآن والسنة في مجال العلوم الكونية كمـا خدمهـا السلف في مجال اللغة والاصول والفقه وغيرها من مجالات العلوم الشرعية فنحن أمام معجـزة علميـة كـبرى تنحنى أمامها جباه المنصفين من قادة العلوم الكونية في عصرنا.

الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي:

التفسير العلمي: هو الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية.
أما الإعجاز العلمي: فهو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيراً وثبـت عـدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول. وهكذا يظهر اشتمال القرآن أو الحديث على الحقيقة الكونيـة التي يؤول (يصير وينتهي) إليها معنى الآية أو الحديث ويشاهد الناس مصداقها في الكون فيستقر عندها التفسيـر ويعلم بها التأويل كما قال تعالى:(لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) [الانعام: ٦٧] وقد تتجلى مشاهد أخرى كونيـة عبر القرون، تزيد المعنى المستقر وضوحاً وعمقاً وشمولاً لأن الرسول قد اوتى جوامع الكلم، فيزداد بها الإعجاز عمقاً وشمولاً، كما تزداد السنة الكونية وضوحا بكثرة شواهدها المندرجة تحت حكمها.

قواعد وأسس أبحاث الإعجاز العلمي:

لقد قامت هذه الأبحاث على قواعد نوجزها فيما يلي: - علم ا هو العلم الشامل المحيـط الـذي لا يعتريـه خطأ، ولا يشوبه نقص، وعلم الإنسان محدود ويقبل الازدياد ومعرض للخطأ. - هناك نصـوص مـن الوحـي قطعية الدلالة، كما أن هناك حقائق علمية كونية قطعية. - في الوحي نصوص ظنية في دلالتهـا، وفـى العلـم نظريات ظنية في ثبوتها. - لا يمكن أن يقع صدام بين قطعي من الوحي وقطعي من العلم التجريبي، فإن وقـع في الظاهر، فلابد أن هناك خللا في اعتبار قطعية أحدهما وهذه قاعدة جليلة قررها علماء المسلمين وقـد آ لف ابوالعباس ابن تيمية كتاباً من أحد عشر مجلداً لبيانها تحت عنوان:(درء تعارض العقل والنقل). - عندما يرى ا عباده آية من آياته في الآفاق أو في الأنفس مصدقة لآية في كتابه، أو حديث من أحاديث رسوله يتضح المعـنى، ويكتمل التوافق ويستقر التفسير، وتتحدد دلالات ألفاظ النصوص بما كشف من حقائق علمية وهذا هو الإع جاز. - أن نصوص الوحي قد نزلت بألفاظ جامعة فقد قال:" بعثت بجوامع الكلم"((أخرجه البخارى في الجهاد) مسلـم في المساجد برقم ٥٤٢٣ والترمذى في السير برقم ١٥٥٣ والنسائى في الجهاد باب وجوب الجهاد) مما يدل على أن النصوص التي وردت عن النبي تحيط بكل المعاني الصحيحة في مواضيعها التي قد تتابع في ظهورها جيـلاً بعد جيل. - إذا وقع التعارض بين دلالة قطعية للنص وبين نظرية علمية رفضت هذه النظرية لأن النص وحـي من الذي أحاط بكل شئ علماً. وإذا وقع التوافق بينهما كان النص دليلاً على صحة تلك النظرية وإذا كان النـص ظنياً والحقيقة العلمية قطعية يؤول النص بها. - وإذا وقع التعارض بين حقيقة علمية قطعية، وبين حديث ظنـي

في ثبوته، فيؤول الظني من الحديث ليتفق مع الحقيقة القطعية وحيث لا يوجد مجال للتوفيق فيقدم القطعي.

منهجية أبحاث الإعجاز العلمي في ضوء منهج السلف وكلام المفسرين:

للسلف منهج سديد فيما يتعلق بأمر الصفات الإلهية وأحوال يوم القيامة وما لا سبيل إليه من غير طريق الوحي ويتمثل هذا المنهج في الوقوف عندما دلت عليه النصوص بدون تكلف لمعرفة الكيفيات والتفاصيل التي لم يبينها الوحي لأن البحث فيها كالبحث في الظلام، وهي قسر لحقائق الوحي الكبرى في قالب تصورات ذهنية بشرية محدودة الحس والزمان والمكان المحيط ببيئة الإنسان. وكلام الخالق سبحانه عن أسرار خلقه في الآفاق وفى الأنفس غيب قبل أن يرينا الله حقائق تلك الأسرار ولا طريق لمعرفة كيفياتها وتفاصيلها قبل رؤيتها، إلا ما سمعنا عن طريق الوحي وكان السلف لا يتكلفون ما لا علم لهم به أن معاني الآيات المتعلقة بالأمور الغيبية ودلالتها اللغوية معلومة ولكن الكيفيات والتفاصيل محجوبة وإن من وصف حقائق الوحي الكونية بدقائقها وتفاصيلها بعد أن كشفها الله وجلاها للأعين غير من وصفها من خلال نص يسمع، ولا يرى مدلوله الواقعي لأن وصف من سمع وشاهد غير من سمع فقط. ولقد وفق السلف الصالح من المفسرين كثيراً في شرحهم لمعنى الآيات القرآنية رغم احتجاب حقائقها الكونية، مع أن المفسر الذي يصف حقائق وكيفيات الآيات الكونية في الآفاق والأنفس وهي محجوبة عن الرؤية في عصره قياساً على ما يرى من المخلوقات وفى ضوء ما سمع من الوحي، يختلف عن المفسر الذي كشفت أمامه الآية الكونية فجمع بين ما سمع من الوحي وبين ما شاهد في الواقع.

ونظراً لعدم خطورة ما يتقرر في مجال الأمور الكونية على أمر العقيدة يوم ذاك لم يقف المفسرون بها عند حدود ما دلت عليه النصوص بل حاولوا شرحها بما يسر الله لهم من الدراية التي تيسرت لهم في عصورهم وبما فتح الله به عليهم من إفهام، وكانت تلك الجهود العظيمة التي بذلها المفسرون عبر القرون، لشرح نصوص الوحي المتعلقة بالأمور الكونية - التي لم تكشف في عصرهم - مبينة لمستوى ما وصل إليه الإنسان من علم، في تلك المجالات ومبينة لمدى توفيق الله لهؤلاء المفسرين فإذا ما حان حين مشاهدة الحقيقة في واقعها الكوني ظهر التوافق الجلى بين ما قرره الوحي وما شاهدته الأعين وظهرت حدود المعارف الإنسانية المقيدة بقيود الحس المحدود والعلم البشرى المحدود بالزمان والمكان وازداد الإعجاز تجلياً وظهوراً. وكتب الله التوفيق للمفسرين فيما شرحوه من آيات وأحاديث متعلقة بأسرار الأرض والسماء بفضل اهتدائهم بنصوص الوحي المنزل ممن يعلم السر في الأرض والسماء، ومسترشدين بما علم لهم من دلالات الألفاظ ومعاني الآيات.

أوجه الإعجاز العلمي:

وتتمثل أوجه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة فيما يلي:

١- التوافق الدقيق بين ما في نصوص الكتاب والسنة، وبين ما كشفه علماء الكون أمثال البروفسور كيث ل. مور وهومن أشهر علماء العالم في علم الأجنة وكتابة في علم الأجنة مرجع عالمى مترجم إلى سبع لغات منها الروسية واليابانية والصينية والذي جاء بعد اقتناعه بأبحاث الإعجاز العلمي ألقى محاضرة في ثلاث كليات طبية بالمملكة العربية السعودية عام (١٤٠٤هـ)بعنوان (مطابقة علم الاجنحة لما في القرآن والسنة) من حقائق كونية وأسرار كونية لم يكن في إمكان بشر أن يعرفها وقت نزول القرآن.

٢- تصحيح الكتاب والسنة لما شاع بين البشرية في اجيالها المختلفة من أفكار باطلة حول أسرار الخلق مثل ما كان شائعاً بين علماء التشريح من أن الولد يتكون من دم الحيض واستمر ذلك الاعتقاد إلى أن اكتشف المجهر في القرن السادس عشر الميلادي بينما نصوص القرآن والسنة تقرر أن الولد يتكون من المنى وقد رد علماء المسلمين من أمثال الأمام ابن القيم والأمام ابن حجر وغيرهم أقوال علماء التشريح في عصورهم بنصوص الوحي وذلك مثل ما قاله ابن حجر وزعم كثير من أهل التشريح أن منى الرجل لا أثر له في الولد إلا في عقده

وأنه إنما يتكون من دم الحيض وأحاديث الباب تبطل ذلك(الفتح: ٤٨٠/١١).

٣- إذا جمعت نصوص الكتاب والسنة الصحيحة وجدت بعضها يكمل بعضها الآخر فتتجلى بها الحقيقة مع أن هذه النصوص قد نزلت مفرقه في الزمن وفى مواضعها من الكتاب الكريم وهذا لا يكون إلا من عند ا الذي يعلم السر في السماوات والأرض.

٤- سن التشريعات الحكيمة التي قد تخفى حكمتها على الناس وقت نزول القرآن وتكشفها أبحاث العلماء في شتى المجالات مثلما كشفه العلم حديثاً من الحكمة في تحريم أكل لحم الخنزير والاعتزال المقصور على الجماع في المحيض ويسألونك عن المحيض{ قل هو أذى أفاعة النساء في المحيض} (البقرة:٢٢٢).

٥- عدم الصدام بين نصوص الوحي القاطعة التي تصف الكون وأسراره على كثرتها، وبين الحقائق العلمية المكتشفة على وفرتها، مع وجود الصدام الكثير بين ما يقوله علماء الكون من نظريات تتبدل مع تقدم الاكتشافات ووجود الصدام بين العلم وبين ما قررته سائر الأديان المحرفة والمبدلة. تنبيه وكلامنا هنا محصور في قضايا الإعجاز العلمي الذي تسفر فيه النصوص عن معاني لكيفيات وتفاصيل جديدة عبر العصور أما ما يتعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق فقد بينها رسول ا صلى ا عليه وسلم ووضح تفسيرها (التفسير والمفسرون للذهبى: ٣٤/١).

الإعجاز العلمي بين المجيزين والمانعين: ينقسم العلماء في هذا الموضوع إلى فريقين فريق: يجيزه ويدعو اليه ويرى فيه فتحاً جديداً وتجديداً في طريق الدعوة إلى ا وهداية الناس إلى دين ا . وفريق: يرى في هذا اللون من التفسير خروجاً بالقرآن عن الهدف الذي أنزل من أجله، وإقحاماً له في مجال متروك للعقل البشرى يجرب فيه ويصيب ويخطئ. ولذلك وبعد أن وضحنا المنهجية التي تحكم البحث في مجال الإعجاز العلمي ومنهج السلف والمفسرين كان لابد من استعراض رأى الفريقين ومناقشة حججهم.

المجيزون للتفسير العلمي:

أما مجيزوا التفسير العلمي وهم الكثرة فيمثلهم الأمام محمد عبده، وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا،والشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ محمد أبو زهرة ومحدث المغرب أبو الفيض أحمد بن صديق الغمارى، ونستطيع أن نعد منهم الشيخ محمد الامين الشنقيطى، صاحب أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن. وهؤلاء الذين يتبنون التفسير العلمي للقرآن يضعون له الحدود التي تسد الباب أمام الأدعياء الذين يتشبعون بما لم يعطوا. ومن هذه الحدود:

١- ضرورة التقيد بما تدل عليه اللغة العربية فلابد من: أ) أن تراعى معاني المفردات كما كانت في اللغة إبان نزول الوحي. ب) أن تراعى القواعد النحوية ودلالاتها. جـ) أن تراعى القواعد البلاغية و دلالاتها. خصوصاً قاعدة أن لا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية.

٢- البعد عن التأويل في بيان إعجاز القرآن العلمي

٣-ان لا تجعل حقائق القرآن موضع نظر، بل تجعل هي الأصل: فما وافقها قبل وما عارضها رفض.

٤- أن لا يفسر القرآن إلا باليقين الثابت من العلم لا بالفروض والنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص، أما الحدسيات والظنيات فلا يجوز أن يفسر بها القرآن، لأنها عرضة للتصحيح والتعديل – أن لم تكن للأبطال – في أي وقت.

المانعون من التفسير العلمي:

أما المانعون من التفسير العلمي فيمثلهم في هذا العصر شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمـود شلتوت والأستاذ سيد قطب، ود. محمـد حسين الذهبي. وهـؤلاء المانعون يقولون:

١- أن القرآن كتاب هداية، وإن الله لم ينزله ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلـوم، ودقائـق الفنون، وأنواع المعارف.

٢- أن التفسير العلمي للقرآن يعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعـرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير.

٣- أن التفسير العلمي للقرآن يحمل أصحابه والمغرمين به على التأويل المتكلف الذي يتنافى مع الإعجـاز، ولا يسيغه الذوق السليم.

٤- ثم يقولون: أن هناك دليلاً واضحاً من القرآن على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقـائق الكـون، وهذا الدليل هو ما روى عن معاذ أنه قال: " يا رسول الله أن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلة فما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يستوي ويستدير، ثم ينقص حتى يعود كما كان فأنزل الله هذه الآية:(يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) [البقرة ١٨٩].

ولكن هل تكفى هذه الحجج لرفض التفسير العلمي ؟؟:

أن كون القرآن الكريم كتاب هداية لا يمنع أن ترد فيه إشارات علمية يوضحها التعمق في العلم الحديث، فقد تحدث القرآن عن السماء والأرض،والشمس، والقمر، والليل والنهار، وسائر الظواهر الكونية، كما تحـدث عـن الإنسان، والحيوان والنبات.

ولم يكن هذا الحديث المستفيض منافياً لكون القرآن كتاب هداية، بل كان حديثه هذا أحد الطرق التي سـلكها لهداية الناس. - أما تعليق الحقائق التي يذكرها القرآن بالفروض العلمية فهو أمر مرفوض وأول من رفضه هـم المتحمسون للتفسير العلمي للقرآن. - أما أن هذا اللون من التفسير يتضمن التأويل المستمر، والتمحل، والتكلـف فإن التأويل بلا داع مرفوض. وقد اشترط القائلون بالتفسير العلمي للقرآن شروطاً من بينهـا أن لا يعـدل عـن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة التي تمنع من إرادة الحقيقة. - وأما الاستدلال بمـا ورد فـي سبب نزول الآية (يسألونك عن الأهلة) فهو بحاجة إلى أن يثبت وإلا فهو معارض بما رواه الطبري في تفسـيره عن قتادة في هذه الآية قال: سألوا النبي لم جعلت هذه الأهلة؟ فأنزل الله فيها ما تسمعون (هي مواقيت للنـاس والحج) فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ولمناسكهم وحجهم ولعدة نسائهم ومحل دينهم في أشياء والله أعلم بما يصلح خلقه ". وروى عن الربيع وابن جريج مثل ذلك. ففي هذه الروآيات التي ساقها الطبري والسؤال هو: لـم جعلت هذه الأهلة ؟ وليس السؤال ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يستوي ويستدير ثم ينقص. ولذلك فإنه لا دليل في الآية على إبعاد التفسير العلمي.

الخلاصة:

إن التفسير العلمي للقرآن مرفوض إذا اعتمد على النظريات العلمية التي لم تثبت ولم تستقر ولم تصل إلـى درجة الحقيقة العلمية. - ومرفوض إذا خرج بالقرآن عن لغته العربية. - ومرفوض إذا صدر عن خلفية تعتمـد العلم أصلاً وتجعل القرآن تابعاً. - وهو مرفوض إذا خالف ما دل عليه القرآن في موضـع آخـر أو دل عليـه صحيح السنة. - وهو مقبول بعد ذلك إذا التزم القواعد المعروفة في أصول التفسير من الالتزام بما تفرضه حدود اللغة، وحدود الشريعة والتحري والاحتياط الذي يلزم كل ناظر في كتاب الله. وهو - أخيراً - مقبول ممن رزقه الله علماً بالقرآن وعلماً بالسنن الكونية لا من كل من هب ودب فكتاب الله اعظم من ذلك.

أهمية أبحاث الإعجاز العلمي وثمارها:

١- امتداد بينة الرسالة في عصر الكشوف العلمية. إذا كان المعاصرون لرسول ا قد شاهدوا بأعينهم كثيراً من المعجزات، فإن ا أرى أهل هذا العصر معجزة لرسوله تتناسب مع عصرهم، ويتبين لهم بها أن القرآن حـق، وتلك البينة المعجزة هي: بينة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وأهل عصرنا لا يذعنون لشيء مثل إذعانهـم للعلم، على اختلاف أجناسهم وأديانهم.

٢- تصحيح مسار العلم التجريبي. لقد جعل ا النظر في المخلوقات، الذي تقوم عليه العلوم التجريبية طريقـاً إلى الإيمان به، وطريقاً إلى الإيمان برسوله ولكن أهل الأديان المحرفة كذبوا حقائقه، وسفهوا طرقه، واضطهدوا دعاته، فواجههم حملة هذه العلوم التجريبية، بإعلان الحرب على تلك الأديان، فكشفوا مـا فيهـا مـن أباطيـل، وأصبحت البشرية في متاهة، تبحث عن الدين الحق، الذي يدعو إلى العلم، والعلم يدعو إليه. أن بإمكان المسلمين أن يتقدموا لتصحيح مسار العلم في العالم، ووضعه في مكانه الصحيح، طريقاً إلى الإيمان با ورسوله، ومصدقاً بما في القرآن، ودليلاً على الإسلام.

٣- تنشيط المسلمين للاكتشافات الكونية، بدوافع إيمانية. أن التفكير في مخلوقات ا عبادة، والتفكير في معاني الآيات والأحاديث عبادة، وتقديمها للناس دعوة إلى ا . وهذا كله متحقق في أبحاث الإعجاز العلمي في القـرآن والسنة وهذا من شأنه أن يحفز المسلمين على اكتشاف أسرار الكون بدوافع إيمانية تعبر بهم فترة التخلف التـي عاشوها فترة من الزمن في هذه المجالات. وسيجد الباحثون المسلمون في كلام الخالق عن أسرار مخلوقاته، أدلة تهديهم أثناء سيرهم في أبحاثهم، تقرب لهم النتائج، وتوفر لهم الجهود. واجب المسلمين إذا علمنـا أهميـة هـذه الأبحاث في تقوية إيمان المؤمنين، ودفع الفتن التي ألبسها الإلحاد ثوب العلم. عن بلاد المسلمين، وفى دعوة غير المسلمين، وفى فهم ما خوطبنا به في القرآن والسنة، وفى حفز المسلمين للأخذ بأسباب النهضة العلمية، تبين من ذلك كله أن القيام بهذه الأبحاث من أهم فروض الكفآيات. وصدق ا القائل: " { لم يكن الذين كفروا مـن أهـل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة } (البينة:١)